الفصل الثالث

مصادر الصورة الفنية في الشعر العربي

3،1 تمهيد:

الصورة الشعرية، وساطة التحام الإنسان مع الكون، لتشكيل نوع من الوجود الإنساني الخاص. لأن علاقات تركيب الصورة تتدخل وتتشابك عند الشاعر، فإن الاهتمام بدراستها للكشف عن هذه العلاقات أصبح من الموضوعات المهمة التي يعنى بها النقد الحديث، وانطلاقا من هذا الاهتمام جاءت دراستي هذه " الصورة الفنية وتصويرها في شعر أصحاب المدرسة الأوسية أوس بن حجر نموذجا". وذلك لما كان لأصحاب هذه المدرسة من مكانة اجتماعية وفنية مهمة في عصرهم. فمصادر الصورة التي أعنيها هنا مجموعة العلاقات القائمة أو المحتملة بين الإنسان والمظاهر الوجودية كلها. وهي تتوزع عادة على أنواع ثلاثة تؤلف مجتمعة المصدر الأساسي للصورة عند أوس بن حجر وهذه المجالات هي:

1. الحياة اليومية.
2. الحياة الإنسانية.
3. الحيوان والطبيعة.

ولكن توزيع صور الشعراء على هذه المجالات تختلف من شاعر لآخر؛ لأن مثل هذا التوزيع يرتبط بعدة عوامل شخصية منها اهتمامات كل شاعر، والمؤثرات الخاصة التي تحيط به، وتوجه اهتماماته. أما

شاعرنا أوس بن حجر، فإن صوره تشير إلى أنه يولى الحياة اليومية جل اهتمامه، إذ نراه يعود إليها كثيرا حتى تجمعت في ديوانه أعداد كثيرة منها، ويلي ذلك اهتمامه بالإنسان فالحيوان والطبيعة. إن مثل هذا الاهتمام عند الشاعر لم يأتِ اعتباطا أو مصادفة، ولكنه مشكل من ارتباطات داخلية لأنا الشاعر بالآخر " الكون أو الحياة والوجود".

ولهذا نعده ترتيبا ذا طبيعة خاصة بأوس، قد لا يتفق معه فيه شاعر آخر من شعراء عصره. وأن هذا الترتيب مفروضا بذوق خاص، وطراز من حياة فكرية، وشعورية خاصة. فإنه من الطبيعي أن لا يتفق فيه أوس مع غيره من جيل عصره من الشعراء؛ لأن لكل من هؤلاء نمطا من الذوق والتفكير والشعور مختلفا عن نمطه. وهذا الاختلاف والتفرد، يمنح دراسة الصورة عند أوس قدرا كبيرا من الأهمية؛ لأنه يكشف عن التميز الفردي الذي كان للشاعر خاصة. وأن الاختلاف في الاهتمامات بموضوعات الصورة "مصادرها" أو المواد التي تتشكل منها يستدعي اختلافا في البناء الشعري، وبالتالي اختلافا في الظواهر الفنية الناتجة عن ذلك.

ولهذا سنحاول دراسة موضوعات الصورة أو مجالاتها الحياتية عند أوس بن حجر مراعين ترتيبها، ومبرزين القضايا الذاتية المتعلقة بها قاصدين تحليل العناصر التجريبية، على أساس أنها تشكل القاعدة الأساسية التي ارتفع فوقها فن أوس في كل شعره. وهذا لا يعني الخوض بكل المسائل الفكرية والشعورية والجمالية التي يثيرها شعر أوس، فذلك أمر لا يحيط به هذا الفصل الذي يجب أن يظل صورة الحياة ومظاهرها لدى الناظم.

3،2 الحياة اليومية:

إن صور الحياة اليومية في شعر أوس بن حجر تشغل مساحة وحيزا كبيرا من اهتمام الشاعر بها. والحياة اليومية بالرغم من بساطتها في العصر الجاهلي، فإنها متعددة الجوانب والقضايا، ولقد أبرزت طبيعة الحياة التي يعيشها الناس ظواهر فرضت نفسها على الشاعر فاهتم بها واتخذ منها مادة صوره. فقد ظهرت اهتمامات أوس بن حجر في رسم الصورة الشعرية من المحيط به وخاصة ما كان يلحظ من ممارسات في الحياة اليومية، فاهتم بوصف الظعائن، والرحلات التي تخيلها أو أعاد رسمها شعرا بعدما قام بها فعلا، ثم وصف الأطلال، ومشاهد الصيد، والحروب، والورد والسقاية، وغيرها مما كان يعايشه من أمور في حياته اليومية كغيره من الناس في عصره القديم. يجب التنبيه إلى أنه يتفرد بالحديث عن هذه الأمور، ولكن نمطه في تناول كل واحد منها يجب أن يختلف – كما قلنا سابقا – عن نمط كل شاعر جاهلي، فهي بالنسبة لهم مواد ساكنة، ثم جاء كل واحد منهم يشكل منها ألوانا تناسب تجاربه الخاصة في الحياة، ثم تلتقي معه في لونه الفني الذي تبرزه أشكال قصائده.

3،2،1 الصورة والأطلال:

ومن المصادر التي ظهرت في صور أوس الأطلال فهي تظهر بكثرة في الشعر الجاهلي عموما، وشعر أوس خصوصا، فتوقف عند وصفها في كثير من قصائده كغيره من الشعراء الفحول، وكان من وراء وصفه لها يحرص على إثارة قضايا معينة منها: ذكر بعض أسماء الصواحب في مقدماته الطللية، وهذا الذكر كان يثير

عواطف الشاعر، وما تحمل من صدق المعاناة والانفعال الوجداني، ويظهر ذلك الانفعال عند أوس وهو مارٌّ بديار المحبوبة " تماضر " بالغمر، والمرين، والشعبا وما يشاهد فيها من آثار حيث يقول (أوس: 1996):

حلت تماضر بعدنا ربا ** فالغمر فالمرين فالشعبا

حلت شآمية وحل قسا ** أهلي فكان طلابها نصبا

لحقت بأرض المنكرين ولم ** تمكن لحاجة عاشق طلبا

شبهت آيات بقين لها ** في الأولين زخارفا قشبا

تمشي بها ربُد النعام كما ** تمشى إماءٌ سربلت جُببا

فأوس يفتتح قصائده على نهج الشعراء الجاهليين، بذكر محبوبته " تماضر" وذكر الأماكن التي تنزل فيها، ويذكر صعوبة الوصول إليها؛ لبعد المسافة بينهما. فبدأ الشاعر يرسم صور تلك الأماكن، وما علق في ذهنه منها فراح يشبه تلك الأماكن، وما بقي منها من آثار، بالزخارف القشب أي: الزخارف الجديدة التي لم تندثر، وأن هآتيك المرابع خالية، بعد أن عمرها سكن المحبوبة، صارت سكنا لربد النعام. والذي يستوقفنا ونحن نبحث الصورة وكيفية تصويرها عند الشاعر كيف شبه أوس الآثار بأرض المحبوبة بالزخارف القشيبة؟ وكلمة القشيب لا تأتي إلا في مقام التزيين وكمال الحسن، أي الجديدة، وكأنه جاء بهذه الصورة الجمالية ليحتفظ بآثار المحبوبة في ذاكرته على أجمل هيئة وأحسن حال. فيرسل الشاعر هذه الصورة إلي المتلقي واضحة تحمل كل ما يمر به من معاناة وهو يقف في ديار المحبوبة متذكرا محبوبته. فيرسل الصورة واضحة جديدة لا تبلى ولا تندثر، وذلك لما حملها من صدق عاطفة تبعث في نفوس القراء، والسامعين انفعالات صادقة تظل لها أصداء ناطقة تؤثر في نفسية المتلقي؛ لأن الشاعر يعرض الصورة مصورة أو مجسمة أسرارها؛ بهذا نحس بالإعجاب، أو الإشفاق أو الغضب. أي تنتقل إلينا التجربة التي عاشها الشاعر نفسه. فكان الباعث من

وراء هذه الصورة الجمالية " التشبيه " تأنيس، وإيفاء تلك الأماكن وما فيها من معالم وآثار خالدة في النفس متجددة في عين ناظرها على مدى الأزمان والعصور، راسما لها أبهى تصوير وأجمل طراز. وهنا استطاع أوس أن يلقي على هذه الصورة مسحة من نفسه الباعثة على الأمل، لتظل هذه الديار ماثلة على عهدها الأول في كيان النفس، وإن بدت مختلفة للعيان والحس.

إن الوقوف على المنازل والديار والأطلال والتفكير فيها وكل ما يذكر الشاعر بمحبوبته، لمصدر لخلق صورة شعرية واضحة تخلد في ذاكرة الشاعر، وبها يستطيع مشاركة المتلقي في المعاناة التي يمر بها.

فنجده يصور لنا آثار الديار خالية من المحبوبة، عامرة ببقر الوحش والظباء المتنوعة، بسخالها ما بين فطيم، ودان للفطام، وناصف حيث يقول (أوس: 1996):

كأن جديد الديار يمليك عنهم ** تقي اليمين بعد عهدك حالف

بها العين والآرام ترعى سخالها ** فطيم ودان للفطام وناصف

وقد سألت عني الوشاة فخبرت ** وقد نشرت منها لدي صحائف

كعهدك لا عهد الشباب يضلني ** ولا هرم ممن توجه دالف

وقد أنتحي للجهل يوما وتنتحي ** ظعائن لهو ودهن مساعف

جاءت هذه الصورة، بعد أن بدأ الشاعر قصيدته بالوقوف على أطلال صاحبته "أميمة"، وذكر لها من أسماء الأماكن والديار، وهو وثيق الصلة بحياة البادية. إن ذكر الحيوانات وآثارها في أماكن وديار المحبوبة، أمر وثيق الصلة بحالة الشاعر الجاهلي الشعورية، وكأنها توحي بجو الشاعر النفسي، وهذه وردت عند غيره من الشعراء الجاهليين، فهذا امرؤ القيس يصور في صدر معلقته المشهورة، ويذكر محبوبته ومنزلها وقد امتلأت ساحته ببعر الظباء وشبهها بحبات الفلفل فيقول (امرؤ القيس: 1972):

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ** بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها ** لما نسجتها من جنوب وشمأل

ترى بعر الآرام في عرصاتها ** وقيعانها كأنه حب فلفل

إن المتتبع للشعر الجاهلي، ليعجب من ولع الشاعر بذكر الأماكن والوقوف عليها، يقول أحد المستشرقين: " إن ذكر الأماكن في الشعر الجاهلي ليس له من قيمة سوى أنه يحدد الأنحاء التي كان الشاعر وقومه يقطنونها" (شارل ليال: 1992). قد نتفق مع القول السابق الذي يجعل من ذكر الأماكن خاص بموطن الشاعر وسكنه، إلا أننا نشك في أن تكون تلك القيمة الوحيدة في الشعر الجاهلي، مما يدفعنا للتفكير في قيم أكثر واقعية وأصالة، أن إصرار الشاعر على ذكر الأماكن التي سكنها يدل على شدة تعلقه بها، وحبه إياها بصفتها الوطن الذي ترعرع فيه، وعاش حلوه ومره. وحين يذكر الشاعر الأماكن في شعره، لارتباطها بنوع ما في النفس والوجدان، فذكر المكان هو تذكر حدث، وهذا الحدث يحمل في طياته الكثير من الذكريات التي مربها الشاعر، فتغدو هذه الأماكن مهمة في دلالتها الإنسانية بشكل عام. " إن ذكر الأطلال والأمكنة ملتقى يلتقي فيه الحاضر بالماضي، ولايزال الماضي فيه ماثلا بالحاضر، فينقدح من ذلك اللقاء معان وصور وأخيلة تتفاعل معها النفس، وتطرب لها، ويخلق لنا الشاعر صورا شعرية خالدة نتيجة هذا الوقوف. ولقد كان الشاعر الجاهلي يقف في محطة الأطلال ليغسل نفسه، فكانت هذه الأطلال تقوم بنظرية التطهير لنفس الشاعر، حيث تجعله قادرا على تحمل المواقف الصعبة فتتجدد طاقة نفسه، وتتبدد ظلمة وحشتها، وتلطِّف من ذهولها كلما تعكّر صفوها وأظلم ضوؤها" (عبد الله محمد: 1994).

3،2،2 الصورة والظعائن:

الصورة في الظعائن، كما في الأطلال، يترجم واقع الحياة التي كان الجاهليون يعيشونها. لقد كان الناس يجتمعون إلى بعضهم بعضا فيتعارفون ويتحاربون فيتعلق الفتى بفتاة من ذلك البيت ثم ينضب الماء ويجف الكلأ الذي اجتمعوا عليه، فيرتحلون كل إلى جهة أخرى يفتشون له على ماء جديد وكلأ جديد فيفترق الأحبة، ويتباعد الشمل لكن الذكريات تبقي تلوح لأصحابها. ومن هنا وصف الأطلال، ومنها يأتي وصف الظعائن أو ارتحال الأحبة وملاحقتهم بالخيال إن لم يكن واقعا. فيصف لنا أوس الظعائن فيقول (أوس، 1996):

وقد أنتحي للجهل يوما وتنتحي ** ظعائن لهو ودهن مساعف
نواعم ما يضحكن إلا تبسما ** إلى اللهو قد مالت بهن السوالف
وأدماء مثل الفحل يوما عرضتها ** لرحلي وفيها جرأة وتقاذف

فأوس كغيره من الشعراء الجاهليين، اهتم بالظعائن ورسم صورة معاناته من ارتحال المحبوبة في الظعائن، فكانت هذه الظعائن مصدرا لرسم الصورة الشعرية المعبرة عن موقف الشاعر من هذه الظعائن، ومعبرة عما يجد في نفسه تجاه هذا الظعن المرتحل.

فنجده يصور لنا الظعن في قوله (أوس: 1996):

وكـأن ظـعن الحي مـدبـرة ** نخل بزارة حملة السعـد
خانتك منه ما علمت كما ** خان الإخاء خليله لبد

إن الظعائن لا يمكن أن نفهمها في الشعر على أنها مجرد سرد، ووضع من أوضاع الناس في مجتمع له طريقة خاصة في المعاش. إن وضع الظعائن مادة خصبة استغلتها شاعرية الشعراء، ووجهته وجهه ذاتية

خاصة، فلو كان وصف الظعائن مجرد سرد خاص، لما كان له موضوع في مجال الصورة؛ لأن الصورة تركيبة معقدة يتداخل في تأليفها عنصران مهمان: أحدهما ظاهري يقوم في الحواس المتخيلة، والثاني باطني يقوم في النفس مواطن التجربة. ويكون الأول عادة معادلا للثاني وعلى قدر انفعاله. فالظعائن كالأطلال تشكل المظهر الخارجي، لمضمر داخلي بحيث يؤلفان معا الصورة الكبرى، التي حاولنا نقل اتجاهها العام مع أوس وتحديد مصادرها معه.

3،2،3 الصورة والرحلة:

الرحلة في العصر الجاهلي منهج حياة، عند الشعراء عامة، وعند شاعرنا خاصة. ومن خلال مواقعة الرحلة رسم الشاعر الكثير من الصور الشعرية متأثرا بكل المواقف التي مر بها، وأهم ما يجب الالتفات إليه عند الشاعر في رحلته هو الدافع النفسي للرحلة، الذي كان يحرك الشاعر للارتحال أو لتغيير المكان فالهم هو الدافع من وراء الارتحال، كما عبر عن ذلك بقوله (أوس: 1996):

وقد تلاقي بي الحاجات ناجية ** وجناء لاحقة الرجلين عيسور

تساقط المشي أفنانا إذا عضبت ** إذا ألحت على ركبانها الكور

وقول أوس قريبا أو شبيها بقول طرفة في المعلقة في وصف الرحلة (طرفة: 2002):

وإني لأمضي الهم عند احتضاره ** بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

يصور لنا أوس ناقته التي تحمله لقضاء حاجاته من الحياة، بأنها قوية وصلابة أعضائها وتقاذفها في الطريق ويشبهها بالفحل، وهو البعير عظيم الخلقة، وذلك لما بينهما من القوة والصلابة، وبيانا لجلد هذه الناقة وتحملها أعباء السفر فيقول فيها (أوس: 1996):

وأدماء مثل الفحل يوما عرضتها ** لرحلي وفيها جُرأة وتقاذف

فإن يهو أقوام رداي فإنما ** يقيني الإله ما وفى وأصادف

وعنس أمون قد تعللت ** على صفة أو لم يصف لي واصف

علاه من النوق المراسيل وهمة ** نجاة علتها كبرة فهي شارف

جمالية للرحل فيها مقدم ** أمون وملقى للزميل ورادف

فالدافع الذي يحرك الشاعر للارتحال، أو تغيير المكان، هو الهم، الذي يصيبه من الحياة، فيصور لنا أداة الشاعر للرحلة، ناقة قوية، نشيطة، سريعة. ولهذا كان يعادل بينها وبين حيوانات أخرى عرفت فيها مثل هذه الصفات، فهي تشبه في القوة الفحل الشديد، والثور النشيط. وهي تماثل في السرعة النعامة، أو الدلو العظيمة التي إن انقطع حبلها هوت في البئر سريعا، أو حمار الوحش الذي طردته الرماة.

ونجد الشاعر يصور لنا هذه الرحلة وما يلاقي فيها من مشاق في سيره الطويل، وما يجد وهو يقطع المفاوز القاسية، فتوصله ناقة قوية صابرة إلى الماء دون عناء وتعب. ومن هذا الخيال يرسم صورة شعرية غزيرة الخيال والتخيل حول هذه الرحلة الشاقة.

وأما زمان الرحلة فيوم هجير لافح الحرارة فقال واصفا ذلك بقوله (أوس: 1996):

أبقى التهجر منها بعد كدنتها ** من المحالة ما يشفى به الكور

فعناصر الرحلة عند أوس إذن: هم نفسي، يحفز صاحبه على تغيير الحال والمكان، وناقة قوية نشيطة، وأرض مجهولة، وزمان قاس. وهذه العناصر نلمسها في صوره الشعرية، فيصورها للمتلقي تشويقا إلى المغامرة في أمثال هذه الرحلات في البيئة التي عاشها العربي في جاهليته، فرضت عليه هذه الأوضاع القاسية، التي جعلت الشاعر يتكيف معها لينقل لنا المعاناة، التي يمر بها الشاعر في هذه المفازة.

إن الوصول الصائب إلى فهم الأبعاد الفكرية، والجمالية لمثل هذه الصور والمشاهد الحية التي يجسمها لنا الشاعر بالحروف تكاد تنطق عن الظروف، التي يمر بها العربي في هذه الصحراء القاحلة الموحشة، وهذه الصور والمشاهد هي كل ما أفرزته الرحلة الموصوفة في شعره، وخاصة إذا ربطنا كل صورة أو مشهد بالأجواء المختلفة، والمتحدة في إطار روحي خاص ضمن أبيات القصيدة بجميع عناصرها.

إن امتداد الرحلة إلي آفاق الحياة وربط عناصرها بعلاقات موافقة أو مخالفة لعناصر التجربة الإنسانية، التي توحي بها لها ارتفاع بالشعر إلى عالم السمو والشمول الذي يقف عن الجزء دون الكل أو ممارسات الفرد دون المجموع.

3،2،4 الصورة ومشاهد الصيد:

تقوم مشاهد الصيد عند أوس كغيره من الشعراء في العصر الجاهلي على أساس صراع عنيف بين الثور الوحشي وكلاب الصائدين، فهو يتوصل إلى مشهد الصيد في قصائده، غالبا من إرادته نقل هذه المواقف، والمشاهد للمتلقي عن طريق استعادة الصور الراسخة في ذهنه، وذلك مما يشاهده يجري في المجتمع البدوي من القوة والبطش، فيحاول الشاعر نقل هذه التجارب، والمشاهدات الكثيرة والمتنوعة المختزلة في ذاكرته. ومن هنا تتفاوت العملية الإبداعية من شاعر لآخر في تقديم المعنى وعرضه من خلال الصور. وقد تتمازج مواد الصور المختلفة في هيكلها (إبراهيم الغنيم: 1996) وغالبا ما تتألف الصورة الفنية من حدين أساسيين: أحدهما حاضر ماثل أمام الشاعر ووصفه، وثانيهما مختزن في الداخل يماثله أو يضاده. ولكنه يعيد تنسيقها وصياغتها بحيث بدأت شيئا جديدا، لم يسبق له مثيل. فكثير ما يربط أوس مشاهد الصيد بناقته التي تحمله إلى غايته، فينقل لنا المشهد والأحداث عن طريق رسم صور مبتكرة واضحة تظل محفورة في ذهن قارئ

شعر أوس. جاءت صورة الثور الوحشي في شعر أوس كغيره من الشعراء الجاهليين بشكل مفصل ودقيق، وهي في جملتها قد بدأت مشاهد هذه الصورة مع ذكر الناقة وذكر أوصافها، فجاءت صورته تبعا لاستكمال تصوير الشاعر لناقته، التي يرى الشاعر في حكاية صيد الثور الوحشي وسرد مشاهده، ضربا من ضروب الإثارة، والمغامرة، التي يمكن أن يرى الشاعر في قصة هذا الثور فرصة تعبيرية سانحة، يسقط عليها حاله بكل اقتدار واعتزاز. لقد نقل لنا الشاعر الجاهلي، مشاهد وممارسات الحيوان الوحشي، وهذا النقل لم يأت من قبيل الصدفة، وإنما كان نتاج تجارب طويلة، وتتبع دقيق لطبيعة هذا الحيوان، وهذا التتبع كان صادرا عن إعجاب من ناحية، وأنه خير من يمكن أن يمثله من ناحية. فالثور الوحشي من الحيوانات التي لا يمل الشاعر الجاهلي من القول فيه؛ لقرب معاناة الثور الوحشي في الحياة من الشاعر. إن تذرع الشاعر الجاهلي بالناقة في سبيل الوصول إلى حيوان الوحش والانتقال إلى ساحة أكثر رحابة وسعة، وذلك لبث أفكاره وخواطره النفسية فيجد الشاعر في قصة معاناة ثور الوحش تقاربا يحمل نفس الشعور الذي يساور الشاعر، فيسقط واقعه عليه " فما إن يفرغ أحدهم من القول في ناقته حتى يهرع إلى تشبيهها بأحد هذه الحيوانات، ثم ينسى هذه الناقة نسيانا كاملا ويأخذ في الحديث عن المشبه به ثم يطول به الحديث وينعطف ويستقيم وهو يتتبع، ويدقق، ويصف، ويحكي، فاذا تهيأ له ما أراد واستقام، لوى عنقه إلى الوراء قليلا، ثم زعم أن هذا الحيوان – ثور الوحش – شبيه ناقته". (وهب رومية: 1982).

إن المتصفح للشعر الجاهلي يجد الشاعر يحاول أن يستثمر كل الصفات الموجودة في الثور الوحشي، وذلك من خلال عرض قصته بالتفصيل؛ لأنه يرى فيه شيئا مما يجد في نفسه فيتبعها ويدقق فيها. وغالبا ما يرد الثور الوحشي عند أوس بن حجر، أبيض اللون أو مشرقا لامعا، فيستثمر هنا اللون، على معنى من معاني الصفاء الروحي والرفعة كما بين ذلك أوس بقوله (أوس: 1996):

لهقا كأن سراته كسيت ** خرزا نقا يعد أن قشبا

ويشبهه بالكوكب الدري (أوس: 1996):

وانقض كالدري يتبعه ** نقع يثور نخالة طنبا

ويقول واصفا مطاردة صيد (أوس: 1996):

وكأن أقتادي رميت بها ** حتى الكلاب قال له

من وحش أنبط بات منكرسا ** حرجا يعالج مظلما صخبا

لهقا كأن سراته كسيت ** خرزا نقا لم يعد أن قشبا

حتى أتيح له أخو قنص ** شهم يطر ضواريا كشبا

ينحي الدماء على ترائبها ** والقد معقودا ومنقضبا

فذأونه شرفا وكن له ** حتى تفاضل بينها جلبا

حتى الكلاب قال له ** كاليوم مطلوبا ولا طلبا

ذكر القتال لها فراجعها ** عن نفسه ونفوسها ندبا

فنجا بشرته لسابقها ** حتى إذا ما روقه اختضبا

كرهت ضواريها اللحاق به ** متباعدا منها ومقتربا

وانقض كالدريء يتبعه ** نقع يثور تخاله طنبا

يخفي وأحيانا يلوح كما ** رفع المنير بكفه لهبا

يبدأ الشاعر في رسم صور مفصلة عن ناقته التي ارتحل عليها، وذلك من خلال الحكاية التي تم سردها في الأبيات السابقة، وما دار فيها من صراع بين الصياد والثور الوحشي، وكيف استطاع الثور التخلص من كلاب الصيد. إن لحظة اليأس التي مرت به دفعته إلى مغامرة ناجحة، أنقذت حياته من موت كان

محققا، وهذا هو الحال في المغامرات التي يمر بها الشاعر في حياته اليومية، وأن هذا المنظر من مشاهد الصيد التي يؤلفها الثور الوحشي مع الكلاب ما يتخللها من الجرأة والمجاهدة، وحسن احتيال الفرص، هي التي تقود صاحبها إلى النصر والخلاص من شرور أعدائه.

إن كل هذه المشاهد التي رسمها الشاعر في النص الشعري السابق، لها دلائل رمزية، خاصة بالشاعر ومواقفه من قضايا مجتمعه الكبرى، وبخاصة قضية الصراع الإنساني، ثم بمفهومه من الحق والباطل، فالباطل عنده خاسر في النهاية حتى ولو تمتع بالقوة والكثرة. أما الحق فمنتصر حتى لو كان وحيدا في صراعه. وهنا استطاع الشاعر أن يوصل الفكرة من خلال الصور التي ساقها في الحكاية السردية في النص السابق ليترك للمتلقي استخلاص المقصود من النص من خلال التأمل والنظر فيه من عدة أوجه.

3،2،5 الصورة والسلاح:

إن الصراع القائم في البيئة العربية قبل الإسلام، نلحظه في وصف الشعراء، وتصويرهم لسلاحهم، فكانت هذه من مصادر الصورة عندهم عامة وشاعرنا خاصة، لقد ركز على وصفه للسلاح الرمح، والدرع، والسيف، والقوس، ونستطيع أن نلتمس وصف أوس للسلاح في قصيدته "اللامية" التي أطال في وصفه للإبانة عن متانته، وجودته، فلا يقف على جزء منه إلا عرض له، وفصل فيه، وهذه القصيدة انفرد بها عن الشعراء الآخرين، الأمر الذي دفع النقاد القدامى إلي الإطراء بذكره، تميزه عن سواه من الشعراء، فيقول ابن قتيبة: "وهو من أوصفهم للحمر والسلاح، ولاسيما القوس" (ابن قتيبة: 1982). ويعتبر وصف السلاح، مظهرا من مظاهر الفخر والاعتزاز لدى الشاعر الجاهلي؛ لأن الشاعر، هو القناة الإعلامية لمواجهة كل المناورات الحربية وإظهار العدة والعتاد التي تردع كل طامع، يحاول أو ينوي المساس بمقدرات الفرد أو القبيلة.

ولأن السلاح يبرز القوة والشجاعة، التي يتمتع بها الإنسان الجاهلي، ونرى الشعراء، يحاولون الإطالة في وصفها، والإبانة عن متانتها وجودتها. ومن هنا كانت الأسلحة مصدرا من مصادر الصورة عند الشاعر الجاهلي، لأنها تمثل الحماية والدرع الواقي من كل طامع.

ولقد تعرض كل من أوس، وزهير لعرض السلاح، وأدوات الحرب بشكل عام، وتناولا أغلب تفصيلاتها، إلا إن شاعرنا " أوس" كانت له وقفة مع بعض الأسلحة حتى كادت تنسب إليه، وذلك من حسن وإجادة تصويره لها، فقد وصف رمحه قائلا (أوس: 1996):

أصم رديني كأن كعوبه ** نوى القسب عراصا مزجا منصلا

عليه كمصباح العزيز يشبه ** لفصح ويحشوه الذبال المفيلا

ومن الأسلحة التي أعدها الشاعر للحرب الدرع قائلا (أوس: 1996):

وأملس صوليا كنهي قرارة ** أحسن بقاع نفخ ريح فأجفلا

كأن قرون الشمس عند ارتفاعها ** وقد صادفت طلقا من النجم أعزلا

تردد فيه ضوؤها وشعاعها ** فأحسن وأزين بامرىء أن تسربلا

ويقول واصفا سيفه (أوس: 1996):

وأبيض هنديا كأن غراره ** تلألؤ برق في حبي تكللا

إذا سل من جفن تأكل أثره ** على مثل مصحاة اللجين تأكلا

كأن مدب النمل يتبع الربي ** ومدرج ذر خاف برا فأسهلا

على صفحتيه من متون جلائه ** كفى بالذي أبلى وأنعت منصلا

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA

فينتقل بنا الشاعر لوصف قواسه، فيرسم كل جزئية له بشكل مفصل ودقيق؛ لمكانة القوس في نفسه، عمد إلي الدقة في تصويرها وإبراز معالمها فيصفها قائلا (أوس: 1996):

ومبضوعه من رأس فرع شظية ** بطود تراه بالسحاب مجللا
على ظهر صفوان كأن متونه ** عـــللن بدهن يزلق المتنزلا
يطيف بها راع يجشم نفسه ** ليكلأ فيها طرفه متأملا

إلى أن قال (أوس: 1996):

فجودها صفراء لا الطول عابها ** ولا قصر أزرى بها فتعطلا
كتوم طلاع الكف لا دون ملتها ** ولا عجسها عن موضع الكف أفضلا

فقد أطال أوس في وصف السلاح، وخاصة القوس، وذكر مراحل تكوينه، منذ كان فرعا على رأس شجرة، حتى صار قوسا يكسى بالريش اليماني الفاخر، وعرض لسقاية عودها حتى تذبل شيئا فشيئا، وذكر لونها الأصفر الذي يمثل غاية الجود والإتقان، ووصف صوتها، وعرض لحركة وترها. وهنا يظهر مدى إبداع الشاعر في وصف القوس حتى صار سلاحا خطيرا.

ومن خلال تتبع رسم الشاعر للسلاح والحرب، كان يرسم صورا أخرى متعددة، لأنواع السلاح المستخدم آنذاك. فالرمح، والسيف، والدرع، والسهم، والقوس، كما جاء في النص السابق وفي مواضع أخرى من ديوانه، كان الشاعر حريصا، أن يؤلف منها صورا في شعره. وكانت كل صورة تنقل شعورا خاصا، أراد صاحبها، أن يكون متعادلا معها في حجم لتمثل والتمثيل. فالشاعر الجاهلي عامة وشاعرنا خاصة، لم يخرج عن محيطه الذي يعيش فيه، فهو مصدر صورته. فقد قدم لنا أوس تصويرا رائعا للأسلحة الحربية، ولكنه كان

يتعالى بفنه الشعري عن الحب وويلاتها، ويعود بنا إلى الطبيعة الجميلة، ليأخذ منها صورة حية للطبيعة بجمالها ورونقها، وحركتها.

3،2،6 الصورة والمورد:

ومن مصادر رسم الصورة عند الشاعر الجاهلي، المورد- نبع الماء- الذي اهتم به الشاعر كثيرا، وخاصة مسألة الساقية والورد، وما يلازمها من أدوات ووسائل وأفعال. فالشاعر يحاول أن ينقل القارئ إلى مشاهدة ما يجري حول مورد الماء من مشاهد، من خلال تصوير كل المشاهد التي يراها الشاعر حول الماء، فيصور كل ما يتعلق بالمورد من مفاهيم جاهلية قديمة، فنجده يصور أدوات الورد من دلو، ورشاء، وحوض، وبكرة- محالة- فيجعل منها موضوعات لصوره، مقارنا بها بعضا من أحواله ومشاعره.

فنجد الشاعر يقول مصورا لنا المحال (أوس: 1996):

وأنحت كما أنحى المحالة ماتح ** على البئر أضحى حوضه وهو ناشف

وينقل لنا الشاعر صورة أخرى لصوت المحال – البكرة- فيقول (أوس: 1996):

ينفر طير الماء منها صريفها ** صريف محال أقلقته الخطاطف

ويصور لنا قرب الطريدة منه بقوله:

فأمهله حتى إذا أن كأنه ** مُعاطي يد من جمة الماء غارف

ويشبه الجواشن والدروع بالغدير، وذلك في قوله (أوس: 1996):

وأشبرنيه الهالكي كأنـــه ** غدير جرت في متنه الريح سلسل

معي مارن لدن يخلي طريقه ** سنان كنبراس النهامي منجـــل

تقاك بكعب واحد وتلـذة ** يداك إذا مـا هـز بالكف يعسل

وصفراء من نبع كأن نذيرها ** إذا لم تخفضه عن الوحش أفكل

وذكر الرشاء (الحبل الذي تربط به الدلو) في قوله:

تأوي إلى ذي جدتين كأنه ** كر شديد العصب غير منين

أوفى على ركنين فوق مثابة ** عن جول نازحة الرشاء شطون

3،2،7 الصورة والنار:

ومن مصادر الصورة للشاعر الجاهلي، صورة النار، وهي من الصور المهمة، التي أعاد الشاعر ذكرها وتصويرها مرارا، فالنار قد استخدمها في مجالات كثيرة، نذكر منها الكرم، والشجاعة وغيرها. ولكنه كان ينظر في كل مجال من زاوية خاصة، ففي مجال الشجاعة، يصور نار الحرب فيقول (أوس: 1996):

لقونا فضموا جانبينا بصادق ** من الطعن حش النار في الحطب اليبس

ويصور ما لقي الأعداء من قومه بالنار (أوس: 1996):

تكنفنا الأعداء من كل جانب ** لينتزعوا عرقاتنا ثم يرتعـــوا

فما جبوا أنا نسد عـــليهم ** ولكن لقوا نارا تحس وتسفع

ويقول في موضع آخر (أوس: 1996):

قروهم شهباء ملمومة ** مثل حريق النار أو ضرما

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

ويصور اجتهاد الظليم والنعامة أثناء العدو بخفيف ظلة اشتعلت فيها النار (أوس: 1996):

إذا اجتهد شدا حسبت عليهما ** عريشا علته النار فهو يحرق

ويذكر نصال السهام وهي تتوهج توهج جمر الغضا فيقول (أوس: 1996):

تخيرن أنضاء وركبن أنصلا ** كجمر الغضا في يوم ريح تزيلا

ويرسم صورة خيالية من ابتعاد الثور عن الأنظار، بعد أن فتك بالضراء فكان يظهر ويلوح له فيقول (أوس: 1996):

يخفي وأحيانا يلوح كما ** رفع المنير بكفه لهبا

وكان البرق يسهر الشاعر بلمعانه فيصوره بمصباح منير فيقول (أوس: 1996):

قد نمت عني وبات البرق يسهرني ** كما استضاء يهودي بمصباح

ويقول (أوس: 1996):

كأنما بين أعلاه وأسفله ** ربط منشرة أو ضوء مصباح

3،3 الحياة الإنسانية:

إن المتتبع لصور المجال الإنساني في الشعر الجاهلي، يجده في منطقة الاهتمام عند الشعراء عامة، وشاعرنا أوس بالأخص، فقد التفت إلى هذا المجال كثيرا، وشكل منه مصدرا من مصادر الصورة في شعره، وتناولت صوره جوانب مختلفة من الحياة الإنسانية وغلب على هذا الجانب النموذج الإنساني بشكل عام، ونقصد هنا الفرد الذي يتصرف في الحياة من مواقف شعورية أو فكرية. يغلب على الشاعر من مواقف عاطفية أو شعورية، ومنها ينطلق الحافز للسلوك الإنساني الذي يسير إلى هدف معين.

ولقد غطت صور أوس، معظم المواقف الإنسانية، التي كان يعيش بها الإنسان الجاهلي في بيئته، ناقلا لنا ما يمر عليه في هذه الحياة عن طريق تصوير هذه المواقف. وسنحاول تصنيف الصور وتوزيعها على مبدأ أن العاطفة تؤلف قاعدة السلوك، أما العاطفة الفاعلة المحركة المتبوعة بفعل ما فتحقيق للسلوك. ومن هنا نلاحظ أن القاعدة السلوكية مصروفة عند الشاعر إلى الخوف، والكراهية، والحقد، والطمع، والحزن والعزة، وكذلك الذلة، والفخر، والحماسة. وكان شاعرنا – أوس– شاعرا يغلب عليه الفخر والحماسة، ويلحظ في شعره الميل إلى إثارة المفاخر والنزعات القبلية، وهو القائل (أوس: 1996):

وإني امرؤ أعددت للحرب بعدما ** رأيت لها نابا من الشر أعصلا

وشعره حافل بذكر قومه، وأيامهم، ومواقفهم، وتتكشف فيه خبرة الشاعر بأحوال بيئته ومجتمعه. وتظهر حكمته التي أثمرت المعاناة في عصره، الذي لا يعرف سوى التقاليد والأعراف وما تحمله من عصبيات وجهالة.

ومن جميل حلكته الممزوجة بفخره قوله (أوس: 1996):

ورثنا المجد عن آباء صدق ** أسأنا في ديارهم الصنيعا
إذا الحسب الرفيع تواكلته ** بُناةُ السوء أوشك أن يضيعا

ويقول أيضا (أوس: 1996):

وإن نعط لا نجهل ولا ننطق الخنا ** ونجز القروض أهلها ثم نقصد
لا تظهرن ذم امرىء قبل خبره ** وبعد بلاء المرء فاذمم أو احمد

ومن السلوك ما هو دائم، يتخذ شكل العادة، كما وصف قومه بالكرم والشجاعة بقوله (أوس: 1996):

مطاعين في الهيجا مطاعيم للقرى ** إذا اصفر آفاق السماء من القرس

ففي البيت السابق يجمع طرفي الفخر، وهما الشجاعة في الحرب، والقرى في الشدة والبرد.

لقد طغت الصور الإنسانية في شعر أوس، وخاصة حواس الإنسان، ومنها استطاع أوس أن يرسم كثيرا من الصور الجمالية سواء كانت هذه الصور مباشرة أم غير مباشرة.

وهذا النوع من الصور له علاقة بحاسة البصر أو النظر وهي العين، كما في قوله (أوس: 1996):

تضمنتها وارتدت العين دونها ** طريق الجواء المستنير فمذهب

ورسم صورة من صور الحواس، وهي حاسة الذوق فيقول (أوس: 1996):

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت ** من ماء أصهب في الحانوت نضاح

ومن صور الحواس التي نجدها شاخصة في ديوان أوس، توجيه الخطاب لحاسة العين، بقوله (أوس: 1996):

يا عين جودي على عمرو بن مسعود ** أهل العفاف وأهل الحزم والجود

ويقول في العيون (أوس: 1996):

لا تأمنوا آراءه وظنونه ** إن العيون لها من الأمداد

من الصور التشخيصية، خطابه للنفس وتجسيمها بقوله (أوس: 1996):

أيتها النفس أجملي جزعا ** إن الذي تحذرين قد وقعا

والتفت شاعرنا إلى الجسد الإنساني، فاستعاد صورا لبعض أعضائه، ومن ذلك وصف عام لجسد الإنسان، كما نجده منتشرا في مواضع، كثيرة من ديوانه (أوس: 1996):

صبوت وهل تصبو ورأسك أشيب ** وفاتتك بالرهن المرامق زينب

والتفت أيضا إلى الجسد الإنساني، فاستعاد صورا لبعض أعضائه، من ذلك الوجه، كما في الصورة التي رسمها شاعرنا في قوله (أوس: 1996):

فلم أر يوما كان أكثر باكيا ** ووجها تُرى فيه الكآبة تجنب

ويرسم صورة للكف، وهو أحد أعضاء الإنسان فيقول (أوس: 1996):

يخفي وأحيانا يلوح كما ** رفع المنير بكفه لهبا

ومن مصادر الصورة العظم فيذكره بقوله (أوس: 1996):

ألهفا على حُسن أخلاقه ** على الجابر العظم والحارب

ويذكر اليد وهي الجارحة الأكثر حركة في الإنسان فيقول (أوس: 1996):

أبني لبيني لستم بيد ** إلا يدا ليست لها عضد

وصور حاسة الذوق، وحاسة موجهة إلى حواس أخرى في قوله (أوس: 1996):

فكيف وجدتم وقد ذقتم ** رغيبتكم بين حلو ومر

ويصور لنا همه الزائد، وما يعانيه، فيصف مضجعه، وقلة حيلته، لانكسار رجله فيقول (أوس: 1996):

تزاد ليالي فـي طــولهـا ** فليست بلطلق ولا ساكرة

كأن أطاول شوك السيال ** تشك بها مضجعي شاجرة

أنوء برجل بهـــا ذهنهـا ** وأعيت بها أختها الغابرة

ويصور عداوة قوم له، ونظرهم له شزرا يكشف عن العداوة فيقول (أوس: 1996):

قوم لئام وفي أعناقهم عُنفٌ ** وسعيهم دون سعي الناس مبهور

ويل أمهم معشرا جُما بيوتهم ** من الرماح وفي المعروف تنكير

إذ يشزرون إلى الطرف عُرُضٍ ** كأن أعينهم من بغضهم عور

فأطراف الإنسان موضع صورة عند الشاعر فيصور ندمه بالعض على الإبهام فيقول (أوس: 1996):

فعض بإبهام اليمين ندامة ** ولهف سرا أمه وهو لاهف

ومن ذلك رسمه صورا، لظهر الإنسان، وصدره، ثم وجهه الحسن، ويده المتحركة، ورأسه، وشمول الشيب له، وعينه الباكية، وذكر الخوف، والأنامل التي يمسك بها، وغيرها من جسم الإنسان، وكان في تلك الصور يستغل وظيفة العضو الجسدي، لإيجاد الحياة في الصور المشكلة من ذلك العضو. فيقول (أوس: 1996):

فيا راكبا إما عرضت فبلغن ** بني كاهل شاه الوجوه لكاهل

ويصور عينيه الباكيتين فيقول (أوس: 1996):

وإذا ذكرت أبا دُليجة أسبلت ** عيني فَبَــلّ وكيفها سـربالي

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

ويصور العين الباكية، والوجه المكفهر من الكآبة، فيقول (أوس: 1996):

فلم أر يوما كان أكثر باكيا ** ووجها ترى فيه الكآبة تجنب

ويذكر الشيب فيقول (أوس: 1996):

صبوت وهل تصبو ورأسك أشيب ** وفاتتك بالرهن المرامق زينب

وغيرها عن وصلها الشيب إنه ** شفيع إلى بيض الخدور مدرب

ونجد في شعر أوس صورا للرجل، والمرأة، وهذه الصور تحقيق لفحوى القول، بأن الرجل في الشعر الجاهلي معنى، والمرأة صفة، فصور لنا الرجل كريما، شجاعا، صاحب أخلاق رفيعة، وصاحب نبل، وذلك واضح في قوله في الرثاء (أوس: 1996):

ألم تكسف الشمس والبدر ** والكواكب للجبل الواجب

لفقد فضالة لا تستوي ال ** فقود ولاخلة الذاهب

ألهفا على حسن أخلاقه ** على الجابر العظم والحارب

على الأروع السقب لو أنه ** يقوم على ذروة الصاقب

أما المرأة فهي في شعر أوس، جميلة الهيئة والصور دائما، ولقد وصفها مشبها إياها بالريم في قوله (أوس: 1996):

وقد لهوت بمثل الرئم آنسة ** تصبي الحليم عروب غير مكلاح

ووصف أسنانها ولثتها الجميلة في قوله (أوس: 1996):

إذ تستبيك بمصقول عوارضه ** حمش اللثات عذاب غير مملاح

ووصف طيب ريقها مشبها إياه، برائحة الخمر المعتق، في قوله (أوس: 1996):

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت ** من ماء أصهب في الحانوت نضاح

ويقول أيضا (أوس: 1996):

أو من معتقة ورهاء نشوتها ** أو من أنابيب رمان وتفاح

3،4 الحيوان في شعره:

واهتم الشاعر الجاهلي، بالحيوان بشكل عام وذلك لقرب الحيوان منه في البيئة التي يعيش فيها، واهتم بالحيوان الأليف بالأخص الإبل والخيل والكلاب وغيره. . . أما الإبل فقد أخذت الناقة منها أكثر ذلك الاهتمام، لقد كانت وسيلة رحلته، ورسم لها صورا كثيرة، تدل على التعلق بهذا الحيوان، فقد اهتم الإنسان العربي بالناقة اهتماما كبيرا، وعني الشعراء الجاهليون بذكرها، وذكر أوصافها، عناية لم تلقها بقية الأنعام، وسائر الحيوانات، سوى الخيل في ذكر الحروب والمعارك، وكل ذلك لمكانة الناقة في نفوس العرب، وذلك لكريم عطاياها وفضلها؛ لأنه يعتمد عليها بعد الله تعالى في البادية في شتى شؤون حياتهم، وما توفره لهم من سبل الراحة في الحل والترحال. ولقد حظيت الناقة على وجه الخصوص، بعناية خاصة فشغلت حيزا واسعا في أشعارهم، وكانت من مصادر رسم الصورة لديهم، فجاءت صور أوصاف الناقة بأشكال متعددة في شعرهم.

فقد ذكر شاعرنا أوس بن حجر، أوصافا للناقة واهتم بها كغيره من الشعراء، فنجد ذلك يشغل حيزا واسعا من ديوانه، فيقول في أوصاف ناقته (أوس: 1996):

وقد تلاقي بي الحاجات نـــاجية ** وجناء لاحقة الرجلين عيسور

تساقط المشي أفنانا إذا غــضبت ** إذا ألحت على ركبانها الكـور

حـــرف أخوها أبوها من مهجنة ** وعمها خـالها وجناء مئشير

وقد ثوت نصف حول أشهرا جُدُدا ** يسفي على رحلها بالحيرة المور

وقارفت وهي لم تجرب وبـــاع لها ** من الفصافص بالنّمي سفسير

أبقى التهجر منها بعد كـــدنتها ** من المحالة ما يشغي به الكور

تلقي الجران وتقلولي إذا بركـــت ** كـــما تيسر للنفر المها النـور

كأن هرأ جنيبا تحـــت غرضتها ** واصطك ديك برجليها وخنـــزيـر

كـــأنهـــا ذو وشوم بين مأفقة ** والقطقطانة والبرعـــوم مـذعـــور

عندما يذكر أوس ناقته، يذكرها على وجه التأني والدقة والتفصيل، وراح يستطرد في وصفها عن طريق الحكاية القصصية، التي جاءت عليها أغلب صورها فالأبيات السابقة، فوصف ناقته الناجية الوجناء، صاحبة همة، ونشاط. ولعل الشاعر قد رسم لنا في هذه المشاهد من الصور مشهدا، يصف فيه المعنى عن طريق الحيوانات، التي رسم أداورها في عملية التهيج والاستثارة. فجميع الحيوانات التي وصفها الشاعر بينها وبين الإنسان ألفة. فالناقة هي المحور الرئيسي، للشاعر الجاهلي؛ لأنه يعوّلُ عليها كثير في أسفاره، ونقل أحاسيسه ومواجعه وتصوراته ورؤاه، فلم يقف عند حدودها الجسمية، بل يتعدى ذلك إلى جوهر طبائع الأشياء وخصائص سلوكها، لتلتقي مع نزعات الإنسان ووظائفه. فقد حمل الشاعر الجاهلي، ناقته جلّ انفعالاته النفسية والحسية، وما يلاقي في سفره من الآلام، فيحاول إسقاط كل تلك المعاني على ناقته، فهو يصور ويسرد كل حكايات سفره، ومعاناته، بالإنابة عن نفسه. فهي الوسيلة التي توصله إلى مقاصده، وتبلغه إلى مواطن آماله.

إن المتتبع للشعر الجاهلي، يجد الشاعر، صور الناقة وافتتن بذكرها، وأعجب بها وتوج بها قصائده، وربط موضوعاتها وأفكارها، فكانت هي العقد الجامع والمحور الرئيس والجسر الفني، فكان يفخر بوصفها ويزهو، يطيل بتصويرها على سائر الحيوانات التي كانت تعيش في محيطه، ويختار كل الصفات الملائمة ويسقطها على ناقته، فمجدها حتى غدت متحفا، وعمدة شعرية، ومصدرا من مصادر رسم الصورة لديه، فكانت محورا فنيا وموضوعا بارزا في قصيدته وشغلت مساحة كبيرة في شعر الجاهليين. ولقد ألبس الشاعر الجاهلي ناقته شتى المعاني التي تجول في خاطره، وكان يستمد من أوصافها تلك المعاني الخالدة في شعرهم. ففي الضخامة: جلالة وضخمة وفي الإقدام: جسرة، وعسوف، وفي الحركة: خطارة، وخبوب، خنوف، دفاق، ورجوف، ورسلة، وزفوف، زيافة، مروح وشملة شملال، ومعناق. وفي حدة الطبع، عجرفية، وهوجاء، وذات لوث وفي اللون: كميت، وفي الامتلاء والضمور: بادن، وكناز، ولكيّة، ومضيرة، ضامر، بغام، وفي التفاؤل: أمون وناجية. (نصرت عبد الرحمن: 2012)

ولقد حاول أصحاب المدرسة الأوسية، ومنهم أوس إدراك هذه المعاني، أثناء حديثهم عن الناقة، فكانت مصدرا من مصادر الصورة لديهم فوصفها أوس بالضخامة كما جاء في ديوانه (أوس: 1996):

بجلالة سرح النجاء إذا ** آل الجفاحف حولها اضطربا

وكست لوامعة جوانبها ** قصصا وكان لأكمها سببا

وكـــأن أقتاد رميت بها ** بعد الكلال ملمعا شببا

ورسم صورة بحدة الطبع، كما جاء ذلك عند أوس (أوس: 1996):

وأنحت كما أنحى المحالة مــاتح ** على البئر أضحى حوضه وهو ناشف

يخالط منها لينها عجـــــرفية ** إذا لم يكن في المقرفات عجارف

كأن وني حانت به من نظامها ** معا قد فارفضت بهن الطوائف

وذكر لونها فوصفها بقوله (أوس: 1996):

وأدماء مثل الفحل يوما عرضها ** لرحلي وفيها جرأة وتقاذف

وجاء ذكر امتلائها وضمورها عند أوس حيث يقول أوس (أوس: 1996):

وعنس أمون قد تعللت متنها ** على صفة أو لم يصف لي واصف

كميت عصاها النقر صادقة السرى ** إذا قيل للحيران أين تخالف

عملاه كناز اللحم ما بين خفها ** وبين مقبل الرحل هول نفانف

عملاه من النوق المراسيل وهمة ** نجاة علتها كثرة فهي شارف

جمالية للرحل فيها مقدم ** أمون وملقى للزميل ورادف

يشيعها في كل هضب ورملة ** قوائم عوج مجمرات مقاذف

لقد كانت الناقة في صور أوس، وغيره من الشعراء الجاهليين، ميدانا من ميادين التصوير، ومصدرا خصبا من مصادر الصورة عند الشاعر العربي؛ لأنها تعكس لنا بيئة الشاعر، وتبين لنا حالته النفسية، وتكشف لنا عن موهبته الغنية. فكانت كل الصور، والأوصاف التي وصف بها ناقته في شعره ميدانا يمكن من خلاله قياس جو الشاعر النفسي، الذي يعيشه من خلال أوصافه وصوره تبين المزاج، والحالة النفسية لديه. وكانت مظهرا فنيا، يدل على اقتدار الشاعر في توظيف المشاهد المحسوسة، التي يمر بها، وتحيط به، أن يصبها في إطار نظري في تلك الناقة التي هي رفيقة دربه في صحرائه. فكانت " ناقة الشاعر الجاهلي تخلق من حولها جوا، يستقطب كل معالم حيوانات الصحراء، وتلهمه بخلق مواقف، ومشاعر إنسانية، تستدعيه لسرد وتأليف قصص حولها، لها مبناها ومعناها، ولها عقدها ومغزاها، كما لها عظاتها وعبرها، كما كانت ترتبط

بصلات نفسية، وفنية وموضوعية، يسقط ناقته عليها، كما يسقط نفسه على ناقته، فتتألف مواقف ومشاهد، ومعانٍ، تخلق تراثا من فلسفة الحياة، وحقيقتها القائمة على الصراع من أجل البقاء، وذلك سنراه في المظاهر البيئية لحيوان الصحراء، الذي أفرزته هذه الناقة بكل مشاهده، وفصوله، وعقده". (محمد صادق: 1994) وكذلك وقف الشاعر الجاهلي مع الثور الوحشي طويلا، وذكر أوصافه، وتمثل بها في شعره، وجات صورة الثور الوحشي، عند أوس بن حجر، بشكل مفصل ودقيق، فقد بدأت مشاهد هذه الصور، مع ذكر ناقته، وذكر أوصافها، فكانت صورة الثور الوحشي، ضربا من ضروب الإثارة، والمغامرة اللافتة، فهو يرى في سرد قصة هذا الحيوان فرصة تعبيرية سانحة ليسقط عليها حاله بكل اقتدار وفخر.

فقد أوغل الشاعر الجاهلي في نقل مشاهد وممارسات هذا الحيوان، وهذا النقل جاء عن طريق تجارب طويلة للشاعر العربي، في هذه الصحراء، ونتاج تتبع دقيق لطبيعة هذا الحيوان، فالثور الوحشي من الحيوانات التي لا يمل الشاعر الجاهلي من القول فيه. ولقد رأى الشاعر الجاهلي في هذا الحيوان، مساحة واسعة لبث أفكاره، وخواطره النفسية. فيجد الشاعر في قصة معاناة هذا الحيوان تقاربا يمكن أن يحمل نفس الشعور، الذي يساور الشاعر. فقد كان الشاعر الجاهلي" فما إن يفرغ أحدهم من القول في ناقته، حتى يهرع لتصويره، وتشبيهها بأحد هذه الحيوانات، ثم ينسى ناقته نسيانا كاملا، ويأخذ في الحديث عن المشبه به، ثم يطول به الحديث، وينعطف ويستقيم، وهو يتتبع ويدقق، ويصف، ويحكي، فإذا تهيأ له ما أراد واستقام، لوى عنقه إلى الوراء قليلا، ثم زعم أن هذا الحيوان– الثور الوحشي– شبيه ناقته". (وهب رومية: 1982).

فالشاعر الجاهلي استخدم كل الصفات الموجودة في الثور الوحشي، وذلك من خلال عرض قصته، وما يدور فيها من صراع من أجل البقاء، وإن هذه الصفات تحمل في طياتها علاقة يمكن وصفها بالرمزية،

فغالبا ما يرد الثور الوحشي في شعر أوس أبيض اللون، فاللون الأبيض، يدل على معاني الصفاء، والنقاء الروحي والرفعة، كما جاء ذلك على لسان أوس بن حجر إذ يقول (أوس: 1996):

وكـــأن أقتادي رميت بـــها ** بعد الكلال ملمعا شيبا

من وحش أنبط بات منكرسا ** خرجا يعالج مظلما صحبا

لهقا كـــأن ســـراته كسيت ** خرزا نقا لم يعد أن قشبا

ويشبه الثور الوحشي بالكوكب الدري في قوله (أوس: 1996):

وانقض كـــالدري يتبعه ** نقع يثور تخاله طنبا

يخفى وأحيانا يلوح كما ** رفع المنير بكفه لهبا

ولقد نقل لنا الشاعر صور وأحداث حياة الثور الوحشي، بالتفصيل وذكر كل ما يمر عليه من معاناة في هذه الحياة، ليأخذ منها معنى من معاني البحث، والتمحيص، والسعي في سبيل الوصول إلى مكامن الأمن. وهذه الصور التي نجدها في ديوان أوس بن حجر عن الثور الوحشي، تدل وترمز على الصراع بين الخير والشر والقوي والضعيف في بيئة الشاعر المشحونة بالصراعات والحروب.

لقد صور لنا أوس الحمار الوحشي فوصف جوانب ذلك الحمار الخلقية، الخُلقية، فهو عادة ما كان شديد الغيرة على أتنه. وأما أوصافه الخلقية فقد جاءت على لسان الشاعر الجاهلي كثيرة، فقد ورد ذلك عند أوس بن حجر في قوله مصورا الحمار بضخامة الرأس (أوس: 1996):

ورأسا كدن التجر جأبا كأنما ** رمى حاجبيه بالحجارة قاذف

كلا منخريه سائغا أو معشرا ** بما انفض من ماء الخياشيم راعف

وصور لونه فقال (أوس: 1996):

كأني كسوت الرحل أحقب قاربا ** له بجنوب الشياطين مساوف

يقلـــب قيدودا كـــأن سراتها ** صفا منهن قد زحلفته الزحالف

وأما الكلاب، فقد اهتم بتصويرها في مشاهد الصيد، فهي سريعة العدو، ضامرة البطن، تجوع ليكون أدعى لها في طلب الطريدة، فيصف هجومها على الثور الوحشي إذ يقول (أوس: 1996):

حتى أتيح له أخو قنص ** شهم يطر ضواريا كشبا

ينحى الدماء على ترائبها ** والقد معقودا ومُنقضبا

قذأونه شرفا وكـــن لـــه ** حتى تفاضل بينها جلبا

حتى إذا الكلاب قال لها ** كاليوم مطلوبا ولا طلب

ذكر القتال لها فراجعها ** عن نفسه ونفوسها ندبا

فنجا بشرته لسابقـــها ** حتى إذا ما روقه احتضبا

كرهت ضواريها اللحاق به ** متباعدا منها ومقتربا

وكان يستعيد صورا للظبي، والمها، والريم، والآرام في وصف جمال محبوبته، فيختار ما يناسب محبوبته، فنجده يصور محبوبته بالريم في قوله (أوس، 1996):

وقد لهوت بمثل الرئم آنسة ** تصبي الحليم عروب غير مكلاح

ويذكر العين والآرام في صورة نقلها لنا من أطلال المحبوبة بقوله (أوس: 1996):

كأن جديد الدار يبليك عنهم ** تقي اليمين بعد عهدك حالف

بها العين والآرام ترعى سخالها ** فطيم ودانٍ للفطام وناصف

وكان يستعيد صورا، للنعام التي كان يمر عليها في مواقفه، ويذكرها في مجال وصفه، لناقته حيث يقول (أوس: 1996):

تمشي بها ربد النعام كما ** تمشي إماءٌ سربلت جببا

ويقول في آخر واصفا النعامة في قوله (أوس: 1996):

يدف فويق الأرض فوتا كأنه ** بإعجاله الطرف الحديد المعلق

وتبري له زعراء أما انتهارها ** ففوت وأما حين يعيى فتحلق

كأن جهازا ما تميل عليهما ** مقاربة أخصامه فهو مشنق

إذا اجتهد شدّا حسبت عليهما ** عريشا علته النار فهو يحرق

ويصور فرار القوم بالنعامة في قوله (أوس: 1996):

لولا الهمام لقد خفت نعامتهم ** وقال راكبهم في عصبة سيروا

وينقل لنا صور البازي في قوله (أوس: 1996):

وما ينهض البازي بغير جناحه ** ولا يحمل الماشين إلا الحوامل

وفي صورة أخرى يصور لنا مواقفه من الجاهل وحلمه بالنعامة فيقول (أوس: 1996):

فتنتهي ذوي الأحلام عني حلومهم ** وأرفع صوتي للنعام المصلم

فصور لنا النسر من الطيور التي رآها في البيئة التي عاش فيها فيقول (أوس: 1996):

وقتلى كمثل جذوع النخيل ** تغشاهم مسبل منهمر

وأحمر جعدا عليه النسور ** وفي ضبه ثعلب منكسر

ويصف فزع الطير من صوت المحال علي البئر فيقول (أوس: 1996):

ينفر طير الماء منهم صريفها ** صريف محال أقلقته الخطاطيف

ووصف طير القطا، وغالبا ما كان يجمعها في مشهد الورد فيقول (أوس: 1996):

فأوردها التقريب والشدُّ منهلا ** قطاة معيد كرة الورد عاطف

ويزخر شعر أوس بذكر بعض الصور المتفرقة لطيور أخرى، كالحباري، والحمام، والغراب، وطائر الصرد، وغيرها. وكان يصف كل ما حوله، وما يناسب المواقف التي يمر بها مصورا لنا مشاهد حية من بيئته. ويصور لنا ناقته، ويحمل فيها مجموعة من الصور للحيوانات من حوله فيقول (أوس: 1996):

تلقي الجران وتقلولي إذا بركت ** كما تيسر للنفر المها النور

كأن هرا جنبا تحت غرضتها ** واصطك ديك برجليها وخنزير

كأنها ذو وشوم بين مأفقه ** والقطقطانة والبرعوم مذعور

ومن خلال ما وقفنا عليه من أوصاف، وذكر للحيوان في ديوان أوس، نجد أن حياة الحيوان كانت لدى الشاعر (أوس) مجالا حيويا لعرض مواقفه وآرائه من حياة البشر داخل المجتمع الجاهلي الذي كان يعيشه. لقد لفت نظري أثناء تتبع ديوان أوس بن حجر وجود قيم إنسانية أخرى، مازالت غير ظاهرة (مضمرة) وقابلة للكشف، وخاصة في صور الحيوان، التي شاعت في شعر أوس، فنجد الشاعر ينظر من خلال الرؤية المتكاملة للحيوان، وما يمر به من مواقف فيربط ذلك مع حياته، وهذا نجده في ما كان يشير إليه من حماية الرجل للأنثى وغيرته عليها، يقابله حرص الحمار الوحشي على أتانه، والأمومة البشرية نجدها في علاقة البقرة بابنها. ونجد احتمال انتصار الضعيف الذكي على القوي المغرور من خلال عرض مشهد بعض المواقف للكلاب علي البقر الوحشي، والتخلص منها، وأيضا رسم صورة القطا والصقر وغيرها ما ذكره الشاعر في

شعره. فالشاعر متأثر بكل ما يحيط به، وما تسقط عليه عينه في بيئته، ليأخذ منه درسا وينقله للأجيال القادمة من خلال النصوص الشعرية، والصور البلاغية التي تثير اهتمام المتلقي ويتأثر بها في حياته.

3،5 الطبيعة في شعره:

استمد الشاعر الجاهلي مواضيعه من الطبيعة، التي يعيش فيها، ويوثر فيها، ويحاول أن يعبر عن ذلك التأثير، فوصف تلك المشاهد من الطبيعة بدقة بالغة، تظهر مدى انسجامه معها، فقد وصف البرق، والسحاب، والمطر في لوحة تعكس طبيعة ذلك الانسجام بين الشاعر والطبيعة، فقد ضمن تلك اللوحة العديد من الصور التشبيهية الرائعة التي مر ذكرها، فقد أعجب النقاد بهذا الوصف، وذكر ذلك ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء (أنه من أحسن ما سمع في وصف السحاب) (ابن قتيبة: 1982) وذكر أبو الفرج الأصفهاني معلقا وهو يشرح الأبيات بقوله:" وهو أحسن ما وصف به السحاب" (الأصفهاني: 2002).

احتلت الطبيعة مرتبة خاصة في شعر أوس، كغيره من شعراء الجاهلية الفحول، فشغلت حيزا في شعره، فوصف كل مظاهرها التي وقعت تحت ناظريه، ومن أهم المظاهر التي اهتم بها المطر، والسحاب، والبرق، فصور لنا مشهدا من لوحة تفاعل الطبيعة، فيقول (أوس: 1996):

إني أرقت ولم تأرق معي صاحي ** لمستكف بعيد النوم لواح
قد نمت عني وبات البرق يسهرني ** كما استضاء يهودي بمصباح
يـــامـــن لبرق أبيت الليل أرقبه ** في عارض كمضيء الصبح لماح
دان مسف فويق الأرض هيدبه ** يكاد يدفعه من قام بالراح
كـــأن ريقه لـــما علا شطبا ** أقرب أبلق ينفي الخيل رماح

هبت جنوب بأعلاه ومال بـه ** أعجاز مزن يسح الماء دلاح

فالتح أعلاه ثم ارتج أسـفله ** وضاق ذرعا بحمل الماء منصاح

فالبرق والمطر في الشعر الجاهلي، هما مصدر الأرق للشاعر، ويطلب من صاحبه أن يشاركه الأرق، فهو يأرق وصاحبه ينام، فيظهر الشاعر عاتبا على صاحبه، فهذه الصورة عامة غالبة على النص الشعري الجاهلي، فنجد أوس بن حجر يعتب على صاحبه، لعدم انشغاله بأمره، وسهره معه لوميض البرق.

ويصور ما وقع تحت ناظره، من فعل المطر الغزير، بوجه الأرض فيقول (أوس: 1996):

ينزع جلد الحصى أجش مبترك ** كأنه فاحص أو لاعب داحي

فمن بنجوته كمن بمحفلـــه ** والمستكن كمن يمشي بقرواح

كأن فيه عشارا جله شـــرفا ** شعثا لهاميم قد همت بإرشاح

هدلا مشافرها بحا حناجرها ** تزجي مرابيعها في صحصح ضاحي

ويصف صوت الرعد فيقول (أوس: 1996):

فالتج أعلاه ثم ارتج أسفله ** وضاق ذرعا بحمل الماء منصاح

كأنما بين أعلاه وأسفلـــه ** ريط منشرة أو ضوء مصباح

فوصف الرياض وشكلها فقال (أوس: 1996):

فأصبح الروض والقيعان ممرعة ** من بين مرتفق ومنها ومنطاح

ويلتفت الشاعر إلي السماء، ويصور كل ما تقع عينه عليه بارزا، شاخصا في السماء، فيصور لنا القمر، والشمس، وقداسة هذين الكوكبين عند العرب في الجاهلية. ويصور لنا الجبل الذي لاح له، بالكوكب في السماء بقوله (أوس: 1996):

فلما أتى حزان عـردة دونها ** ومن ظلم دون الظهيرة منكب
تضمنها وارتدت العين دونها ** طريق الجواء المستنير فمذهب
وصبحنا عارٌ طويـــلٌ بناؤه ** تشب به ما لاح في الأفق كوكب

ويصور لنا سرعة كلاب الصيد بالكوكب فيقول (أوس: 1996):

كرهت ضواريها اللحاق بها ** متباعـدا منها مقتربا
وانقض كـالدريء يتبعـه ** نقع يثور تخاله طنبا

ويصور غياب المرثي (فضالة) ما أصابهم بسبب فقده بقوله (أوس: 1996):

ألم تكسف الشمس والبدر وال ** كوكب للجبل الواجب
لـفـقـــد فضالة لا تستوي ال ** فقود لا خلة الذهب

ويصور ممدوحه بصورة جمالية بقوله (أوس: 1996):

معازيل حلالون بالغيب وحدهم ** بعمياء حتى يسألون الغد ما الأمر
فـــلو كنتم مـــن الليالي لكنتم ** كليلة سِــرّ لا هــلال ولا بـدر

ويقول في موضع آخر مصورا السماء بقوله (أوس: 1996):

وليس يعاب المرء مـن جبن يومـه ** وقد عرفت منه الشجاعة بالأمس
مطاعين في الهيجاء مطاعيم للقرى ** إذا اصفر آفاق السماء من القرس

ويصور الشمس بالحيوان، ذي القرون فيقول (أوس: 1996):

كأن قرون الشمس عند ارتفاعها ** وقد صادفت طلقا من النجم أعزلا
تـردد فيه ضوؤها وشـعاعـهـا ** فأحسن وأزين بامرىء أن تسربلا

ويرسم صورة جمالية عن ضوء البرق ولمعانه في السماء بقوله (أوس: 1996):

وأبيض هنديا كـــأن غـراره ** تلألؤ بـــرق في حـبي تكـللا

إذا سل من جفن تأكل أثره ** على مثل مصحاه اللجين تأكلا

ويشبه علو مكانة القوم بالنجوم في السماء فيقول (أوس: 1996):

لنا مرجم ننفي به عن بلادنا ** وكل تميم يرجمون بمرجم

أسيد أبناءٌ لـه قـد تتابعوا ** نجوم سماء من تميم بمعلم

ومن صور الطبيعة، الرياح أو الصورة والرياح، فقد أكثر الشعراء الجاهليون من صورة الرياح في أشعارهم، فذكروا أنواعها، وتقلباتها، وأحوالها، وأكثر الرياح في الشعر الجاهلي، هي ريح الشمال، فقد ذكرها أوس كغيره من الشعراء فقال (أوس: 1996):

وازدحمت حلقتا البطان بأقوام ** وطارت نفوسهم جزعا

وعزت الشمأل الرياح وقـــد ** أمسى كميع الفتاة ملتفعا

وقد سار على نهج الشعراء الجاهليين، الذين يعتبرون أن أقوامهم يطعمون الفقراء عند هبوب الشمال.

وذكروا رياح الجنوب، وهي الرياح ذات التفاؤل والخير؛ لأنها في تصورهم سائقة الغيوم الحوافل، وتأتي بالخصب، والنماء لهم. فقد وردت كثيرا في أشعار الجاهليين، من أمثال طرفة بن العبد، وعبيد بن الأبرص، وعمرو بن قميئة، وأوس بن حجر، وغيرهم.

فيرسم لنا أوس بن حجر، صورة جمالية، يصور فيها أثر رياح الجنوب على المزن فيقول (أوس: 1996):

هبت جنوب بأعلاه ومال به ** أعجاز مزن يسح الماء دلاح

فالتج أعلاه ثم ارتج أسفلـــه ** وضاق ذرعا بحمل الماء منصاح

ومن الطبيعي أن يلتفت الشاعر الجاهلي إلى الماء، ويصوره ويكثر من تصويره، فنرى صورة الآبار الطوامي في قلب الفيافي، وصور الغدران، والجداول، وصورة الأنهار المسجورة، بأمواهها العذاب، ويورد الشعراء صورة الماء والموارد عند ذكر الأطلال، فيقول (أوس: 1996):

حلت تماضر بعدنا ربربا ** فالغمر فالمرين فالشعبا

فهنا يذكر مواضع لماء في نواحي مختلفة فيذكر (الغمر، المرين) ويقول في موضع آخر من ديوانه (أوس: 1996):

فأصبح الروض والقيعان مرتعة ** من بين مرتفق منها ومنطاح

هنا تبدو الصورة واضحة، لمياه الغدران، ومن حولها الرياض والأشجار، فيحاول الشاعر أن يتفاعل مع المنظر الجميل الذي رسمته الطبيعة من حوله.

3،6 الخلاصة:

عند استعراض مصادر الصورة الفنية في الشعر الجاهلي " المدرسة الأوسية" الثلاثة من حياة يومية، وإنسانية، والطبيعة والحيوان، يجب التنبه إلى أن شاعرنا أوس بن حجر لم يتفرد بهذه الأمور، لكن نمطه في تناول كل واحدة منها يختلف – كما قلنا سابقا – عن نمط كل شاعر جاهلي تناولها، فقد كانت هذه المواد بالنسبة لهم مواد ساكنة ثم جاء كل منهم يشكل منها ألوانا خاصة تتناسب مع تجاربه الخاصة في الحياة، تصطبغ بلونه ونفسيته، وذلك من خلال أشكال قصائده المتعددة. فقد وصف أوس الأطلال، رغم أنه لم

يقف عند وصفها كثيرا، وهذا ما نلمسه في قصائده. فوصف الرحلة وما دار فيها، وكان الدافع من وصف الشاعر لرحلته هم نفسي يحفز صاحبه على تغيير الحال المكان، وناقة قوية نشيطة، وأرض مجهولة، وزمان قاس مخيف. فرسم لنا جوانب من صور الحرب، وصورا متعددة للسلاح المستخدم آنذاك، فحرص أن يؤلف موضوعات لصور شتى في شعره، وكانت كل صورة منها تنقل لنا شعورا خاصا، أراد الشاعر أن يكون متعادلا معها حجم التمثل والتمثيل. وصور لنا الإنسان تصويرا دقيقا، وذكر هذا المجال كثيرا، وشكل منه صورا تناولات جوانب مختلفة كما مر في الصفحات الماضية. وصور لنا الحيوان، واهتم بالأليف منها، فشكلت صوره للناقة الجزء الأكبر من اهتمامه – كما قلنا – سابقا. من هنا ندرك أن حياة الحيوان كانت لدى الشاعر مجالا حيويا لعرض مواقفه وآرائه من حياة البشر داخل المجتمع الجاهلي الذي يعيش فيه. لقد كانت صور الطبيعة متنفسا جديدا، يتوصل بها الشاعر إلى بسط مواقفه الفكرية والشعورية من الوجود من حوله.

UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA
جامعة العلوم الإسلامية الماليزية
ISLAMIC SCIENCE UNIVERSITY OF MALAYSIA